الأسلوبية وتحليل الخطاب لمنذر عياشي

اعمر بالي
جامعة محمد الأول وجدة/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المغرب

مقدمة

لقد تطور الفكر اللغوي شيئا فشيئا على مر العصور، وبصورة خاصة عند بعض الشعوب كالهنود والإغريق والرومان والعرب، إلى أن أصبح على ما هو عليه في العصر الحديث، مع دي سوسير الذي يعد المؤسس الأول لما يُطلق عليه اليوم باللسانيات البنيوية، وبالتالي فهو أبوها، حيث شكلت أفكاره الواردة في كتاب: " محاضرات في اللسانيات العامة " منطلقا لظهور تيارات واتجاهات مختلفة وكثيرة، كلها تعترف لجهد هذا الرجل في مجال البحث اللغوي، وكان من أبرز هذه الاتجاهات ما يعرف بالأسلوبية، حيث ظلت ملازمة للسانيات، حتى سلخها (شارل بالي) عن مجال البحث اللغوي، وهو أحد تلاميذ دي سوسير، حيث أرسى أسسها ومبادئها في مجموعة من الكتب أهمها: " الوجيز في الأسلوبية "، و " بحث في علم الأسلوب الفرنسي "، و " الأسلوبية الفرنسية ".

والمقصود بها ذلك العلم الذي أصبح يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، من غير تركيز على نص دون آخر، أو على جنس أدبي دون لآخر، أو على ميدان تعبيري دون آخر. وقد تجاوزت حدود الجملة التي كانت تقف عند حدودها البنيويةُ، إلى دراسة النصوص وتحليلها في إطار ما يعرف بتحليل الخطاب، الذي أصبحت عنايته مركزة على تحليل اللغة الكتابية أو القرائية أو الإشارية، ويُعنَى بنقل المجهول إلى المعلوم؛ عن طريق البحث فيما وراء السطور وإظهاره.

فكان أن استعانت هذه الأسلوبية بعلوم أخرى غير لغوية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والتاريخ ... لتكون حلقة وصل مهمة بين النقد الأدبي واللسانيات.

ولا ننسى أن اللسانيين العرب المحدثين، قد تأثروا بمنجزات الغرب في مجال الأسلوبية والخطاب، فأدى بهم ذلك إلى ترجمة ما كتبه رولان بارت، وجوليا كريستيفا، وميشال فوكو، وأمبرتو إيكو ... إضافة إلى بعض الجهود الشخصية التي قام بها باحثون عرب أمثال: تمام حسان، وجابر عصفور، وعبد الملك مرتاض، وشكري عياد، وعبد السلام المسدي، وصلاح فضل، ويمنى العيد، وغير هؤلاء كثير.

ولعل الدكتور منذر عياشي أحد الذين أسهموا في بيان الجانب النظري للخطاب، وبيان آلياته، وأغراضه، ومجالاته. وعلاقة كل ذلك بالدراسات الأسلوبية، فألَّف في ذلك المؤلفات الكثيرة نذكر منها: " الأسلوبية وتحليل الخطاب ". وهو كتاب متوسط الحجم، يحاول صاحبه من خلاله أن يقربنا من آليات الخطاب، ومدى إسهام الدرس الأسلوبي في تكوينه.

وكان هذا من الدوافع التي جعلتني أخص هذا الكتاب بدراسة سميتها بـ: " قراءة في كتاب: الأسلوبية وتحليل الخطاب لمنذر عياشي ".

وقد نهجت في هذه القراءة خطة يمكن عرضها فيما يلي:

. مقدمة.

. المحور الأول: الإطار العام للكتاب.

. المحور الثاني: تلخيص مضامين الكتاب ومناقشتها.

. المحور الثالث: قيمة الكتاب وأبعاده.

. خاتمة.

المحور الأول: الإطار العام للكتاب

1 . التعريف بالكاتب

منذر عطا عياشي، ولد في حلب، سوريا، سنة 1945م، وما زال على قيد الحياة. تلقى تعليمه الابتدائي في حلب. حصل على شهادة الثانوية العامة سنة 1966م، ثم حصل على الليسانس والماجستير، ثم على الدكتوراه سنة 1979م بجامعة أوكس أون بروفانس في فرنسا، تحت عنوان " الأسلوبية المقارنة ". كما حصل على الدكتوراه الثانية في اللسانيات، من كلية دار العلوم، بجامعة الأزهر، القاهرة، سنة 1983م، بعنوان " علم اللغة: النظرية التوليدية ونحو الجملة ".

عمل مدرسا بكلية الآداب، في جامعة حلب، سوريا. كما شغل منصب أستاذ مادة الأسلوب، في جامعة الملك عبد العزيز، بجدة، السعودية. ثم عُيّن أستاذا في جامعة البحرين منذ سنة 1996م.

له إسهام كبير في تحرير الكثير من المجلات المحكمة، منها: شغله منصب رئيس تحرير مجلة (ثقافات)، التي كانت تصدرها جامعة البحرين إلى حدود 2007م. ومنها: أيضا عضويته في مجلة (العلوم اللسانية)، بجامعة البحرين أيضا، إلى حدود سنة 2009م.

وكذلك عضويته في هيئة تحرير مجلة (الموقف الأدبي) عام 1995م.

ومن أبرز إنجازاته أنه أسس دارا للنشر في حلب، سماها (مركز الإنماء الحضاري)، وذلك عام 1992م، وكان من أهدافها إبراز المكونات الحضارية للأمة، ومحاولة النهوض بمشروع الترجمة، فنشرت أعمال (رولان بارت) كاملة، وغيرها من الأعمال.

للكاتب إسهامات جليلة في مجال البحث اللساني وغيره، تأليفا، وترجمة، وإشرافا. حيث أشرف على العديد من رسائل الدكتوراه والماجستير. ومن أبرز أعماله: " قضايا لسانية وحضارية "، و " مقالات في الأسلوبية "، و " اللسانيات والدلالة "، و " والأسلوبية وتحليل الخطاب ".

أما ترجماته فكثيرة، نذكر منها: ترجمته لكتب (بيير جيرو) كـ: " علم الدلالة "، و " علم الإشارة "، و " الأسلوب والأسلوبية ". وترجماته لكتب تودوروف، ورولان بارت، و جاك دريدا، وغير هؤلاء.

هذا فضلا عن مجموعة من الأبحاث والمقالات التي نشرتها له بعض الجرائد والمجلات.

2 . التعريف بالكتاب

كتاب " الأسلوبية وتحليل الخطاب " مهم جدا في بابه، وهو متوسط الحجم، حيث يبلغ عدد صفحاته 155 صفحة، نشره مركز الإنماء الحضاري بحلب، في طبعته الأولى سنة 2002م.

يحدثنا فيه منذر عياشي عن تعريف الأسلوبية، وموضوعها، واتجاهاتها، وعلاقتها بالدرس اللساني وتحليل الخطاب، وقد كشف لنا عن هوية الكتاب أكثر في غلافه الخلفي.

3 . ملاحظة الصورة

تمثل الصورة لبنة هامة في توجيه القارئ لوضع تصور أولي، ونظرة مسبقة عن الكتاب. والصورة التي تم اختيارها لهذا الكتاب؛ هي عبارة عن لوحة تشكيلية للفنان الفلسطيني جمال الأبطح، حيث جاء غلاف الكتاب أبيض اللون، يتوسطه إطار، يميل قليلا إلى الجانب الأيسر، توجد بداخله مجموعة ألوان تشكل بقعة كبيرة، تتوسطها من الخلف بؤرة مضيئة تشبه الشمس. وإذا ما حاولنا تفسير هذه الألوان، وتلك البؤرة المضيئة، فسنؤولها بشمس تحاول الظهور من بين ركام الغيوم. ومن الدلالات التي ترمز إليها الشمس، نجد الحياة، والبعث، والتجديد. ومن الدلالات التي يرمز إليها الركام أو الألوان المتضاربة، عدم الوضوح والضبابية. وهذا هو حال لغتنا العربية اليوم؛ التي تمثلها الشمس. وهي على

وشك عودتها إلى عزتها ومجدها، محاولة الخروج من بين الزخم اللغوي والصيحات غير المجدية، التي تحاول أن تخمد شعلتها. وقد تحيل تلك الألوان الكثيرة التي تبدو منفتحة إلى التفاؤل والأمل بمستقبل مشرق، ونصر قريب لهذه اللغة، وللأمة التي تتكلمها.

4 . دراسة العنوان

العنوان مدخل أساس لقراءة النصوص وفهمها، نظرا لما يتيحه من إمكانات الوعي المسبق لمحتوى المدونة المقروءة. وقد جاء عنوان هذا الكتاب مركبا من جملتين اسميتين، يتوسطهما حرف عطف، ثم مضاف إليه. والوحدات التي يتكون منها هي:

. الأسلوبية: وهي الطريقة والمذهب. جاء في المعجم الوسيط: " الأسلوب هو الطريق، ويقال: سلكت أسلوب فلان في كذا، طريقته ومذهبه. والأسلوب: طريقة الكاتب في كتابته. والأسلوب: الفن. يقال: أخذنا في أساليب من القول، فنون متنوعة ".[1]

الأسلوب بمنظور هذا التعريف هو الشخص، حيث إنه يتَّبع فنا، ويترجم أفكاره عن طريق اللغة، وبأسلوب ما.

ومن حيث التركيب، جاءت (الأسلوبية)، مبتدإ لخبر تقديره في النص. والجملة كما أسلفنا معطوفة عليها جملة أخرى هي:

. تحليل الخطاب: وهي أيضا مما يُقدَّر فيها المحذوف. وهو مصطلح شائع الاستعمال في النقد الأدبي واللسانيات، ويُعنَى بالقراءة الدقيقة التي تجزء النصوص، وتقسمها إلى الوحدات اللغوية الصغرى، مرورا بالكلمات، وصولا إلى الجمل، بغية الوصول إلى دلالات نصية يفرضها الفهم والاستيعاب، بمعونة علوم أخرى خارج لغوية كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ ... وهذه وظيفة مصطلح (الخطاب)، الذي جاء مضافا إلى (تحليل)، وبالتالي فهو مجرور. أما دلالة هذا المصطلح مركبا (تحليل الخطاب)، فهي قراءة ما بين السطور للنص، وإفهامها عن طريق الشرح، والتفسير، والتأويل. وقد أفصح أبو البقاء الكفوي (1094هـ)عن هذا المعنى فقال: " الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا ".[2]

5 . بنية الكتاب

بنية الكتاب هي الخطة التي وضعها المؤلف لعرض كتابه، ورآها مناسبة لترتيب أفكاره وبسطها. وإذا نظرنا إلى بنية هذا الكتاب وموضوعاته، فسنلاحظ أنه وضع مدخلا بعد الإهداء، ضمنه تمهيدا عن الأسلوبية والنظرية العامة للسانيات. ثم وضع قسمين أحدهما نظري، والآخر تطبيقي، يفضي أحدهما إلى الآخر، دون أن يعنونهما. لكنه وضع تحت كل قسم منهما أربعة محاور جعلها مرقمة، وهذا من سمات خلق التوازن في التأليف. وقد فصّل الكلام في هذين القسمين أثناء الدراسة في ثنايا الكتاب.

فالقسم الأول أسسه على أربعة محاور .كما قلنا . وهي:

1 الأسلوب والأسلوبية.

2 . الأسلوبية: اتجاهاتها وحدودها.

3 . الأسلوبية بين اللغة والإيصال.

4 . الأسلوبية والدراسات الأسلوبية.

أما القسم الثاني فقد أسسه أيضا على أربعة محاور هي:

1 . نظام اللغة ونظام الأسلوب.

---

[1] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، صدر سنة 1379هـ. 1960م، مادة (س ل ب)، ص 441

[2] الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش، دار الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ. 1992م، ص 419

2 . من الكائن الإنساني إلى الكائن الكلامي.

3 . في نظرية النص.

4 . الأسلوبية: موقف من الخطاب.

ما يمكن تسجيله من خلال ملاحظتنا لبنية هذا الكتاب، أنه حاول أن يحدث توازنا بين القسم النظري والقسم التطبيقي من جهة، وبين عناصر الكتاب عموما من جهة أخرى، حيث خص كل قسم بأربعة محاور.

المحور الثاني: تلخيص مضامين الكتاب ومناقشتها

سنهتم في هذا المحور بتلخيص مضامين الكتاب، ومناقشتها، وإبراز بعض مواقف الكاتب وتصوراته أحيانا.

ولعل أول ما بدأ به الكاتب في هذا الكتاب مدخل عنونه بـ: " الأسلوبية والنظرية العامة للسانيات "، وضع له تمهيدا، ذكر فيه أن تطور الأسلوبية رهين بتطور اللسانيات، إذ يفضي التطور اللساني مباشرة إلى تطور أسلوبي. وقد بيّن الفرق بينهما، وهو: " أن اللسانيات تعنى باللغة من حيث هي مدرك مجرد تمثله قوانينها، وأن الأسلوبية تعنى باللغة من حيث الأثر الذي تتركه في نفس المتلقي مباشرة ".[3]

نفهم من هذا الكلام أن هناك علاقة عموم وخصوص بين الاتجاهين، إذ يكمن عمل الأسلوبية في الأثر الناتج عن استعمال اللغة التي تحكمها قوانين لسانية مجردة وعامة.

ولَمّا كان هذا التداخل قائما بين العلمين، وأن الأسلوبية فرع عن اللسانيات، فقد رأى المؤلف أنه من الأجدر أن يلقي نظرة سريعة على النظرية العامة للسانيات، قبل الخوض في خصائص الأسلوبية. وقد عرّج في ذلك على نقطتين مهمتين هما: تعريف اللسانيات، وبيَّن فيها النظرية العامة للسانيات، حيث جعلها أربعة أقسام، هي التي نسميها: (مستويات الدرس اللساني). فتحدث في القسم الأول عن الأصوات، وفي القسم الثاني عن الدلالة، وفي القسم الثالث عن النحو، وفي القسم الرابع عن الشكل القاعدي للجملة.

أما النقطة الثانية التي تحدث عنها، فكانت مفهوم اللسان عند اللسانيين، وتكلم فيها عن علماء اللغة العربية، وركز على ابن جني (ت395هـ)، ونظرته للسان، حيث جعله ثلاثة أقسام هي: اللغة والكلام والقول.[4]

ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن اللسانيات الحديثة، وذكر أنها تقسم اللسان إلى اللغة والكلام. ثم عرض لهذين الاصطلاحين بنوع من الإيجاز، مع ذكر الفرق بينهما كما ورد عند دي سوسير، وأندريه مارتنيه، تشومسكي.

ووصل إلى نتيجة مفادها أن اللسانيين المحدثين في تعريفهم للسان، لم يخرجوا عن التعريف الذي وضعه ابن جني.

ذلك، وقد استغرق هذا المدخل حوالي ثلاث وعشرين صفحة من الكتاب، وهو يعني خمسه أو ما يزيد.

. القسم الأول:

لم يعنون الكاتب هذا القسم، ولكنه خصصه لمباحث الأسلوبية عموما، وركز فيه على أربعة عناوين، عبارة عن محاور مرقمة كما يلي:

[3] الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى 2002م ص 09

[4] نفسه، ص 18

1 . الأسلوب والأسلوبية

استهل المؤلف هذا المحور للتعريف بالأسلوبية كعلم، وبيان موضوعها، وهدفها. ثم التركيز على بعض نقط الاختلاف بين الأسلوبية في التراث العربي والدرس الأسلوبي الغربي المعاصر. كما قام بالتمييز بين الأسلوبية كعلم، والأسلوب الذي وقف عند تعريفه من ثلاث زوايا هي: (التعريف الشائع . تعريف الكتاب . التعريف اللساني).

وقد أدت به هذه التعريفات إلى اكتشاف أن الأسلوب حدث يمكن ملاحظته، حيث يقول: " الأسلوب حدث يمكن ملاحظته: إنه لساني لأن اللغة أداة بيانية. وهو نفسي لأن الأثر غاية حدوثه، وهو اجتماعي لأن الآخر ضرورة وجوده ".[5]

سبب جعل الأسلوب حدثا لسانيا هو كونه لسانيا ونفسيا واجتماعيا في آن واحد، أي أنه مرتبط بالفرد والجماعة.

2 . الأسلوبية: اتجاهاتها وحدودها

أ . الاتجاهات

يرى الكاتب في عنصر الاتجاهات الأسلوبية أن لهذه الأسلوبية وجهين، أحدهما عام، والآخر خاص. وقد أوضح معنى ذلك بقوله: " وصار للأسلوبية اتجاه عام، هو دراسة الأسلوبيات العامة، واتجاه خاص، وهو الدرس الأسلوبي الخاص بلغة من اللغات. فعزز هذا استقلالها علما ضمن الدراسات اللسانية ". [6]

تتميز الأسلوبية إذن بسياقها الذي تَدرس به الظواهر عموما وخصوصا، وهو ما وهبها استقلاليتها كعلم قائم بذاته.

ثم تفرعت هذه الأسلوبة إلى مدارس أو أسلوبيات، كلها تمتح من لسانيات سوسير، نذكر منها: أسلوبية التعبير . أسلوبية الفرد . الأسلوبية الوظيفية . الأسلوبية التكوينية . الأسلوبية البنيوية.

كما تفرعت عن هذه المدارس بدورها مذاهب وفروع، تدرس الأسلوب صوتا، وصرفا، ونحوا، وإحصاء. وقد فصّل منذر عياشي في ذكر خصائص كل نوع من هذه الأسلوبيات.[7]

ب . حدود التحليل اللساني

استهل المؤلف هذا العنصر بسؤال جوهري، يرتبط بحدود التحليل الأسلوبي، وهو: هل الأسلوب سمة من سمات الشخصية الفردية ؟ أم أنه اجتماعي ينعكس في المجتمع ونظامه ؟

ثم ذكر أن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي طرح فرضية عمل تتجلى في المحاور الرئيسة التي تكون موضوعا للبحث، والمقصود هنا الإنسان والأسلوب. فطرح فرضيته، ثم ناقشها.[8]

وق أشار أيضا إلى ما يسمى بالتعددية الوظائفية في علاقتها بعنصر الإيصال، وعمد إلى التوسع في الوظائف الست التي حددها (جاكبسون)، وبيّن أن هذه الوظائف قد تختلف من أمة إلى أمة، ومن عنصر إلى عنصر، ومن حضارة إلى حضارة. كما قد تختلف من نص إلى نص للكاتب نفسه. بل وربما تعددت الوظائف في النص الواحد لهذا الكاتب.[9]

---

[5] الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، ص 35

[6] نفسه، ص 41

[7] الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، ص 42

[8] نفسه، ص 48 وما بعدها

[9] نفسه، ص 52

3 . الأسلوبية بين اللغة والإيصال

أ . علاقة اللغة بالإيصال وخروجها عنه

يمكن الربط في العملية التواصلية بين طرفين أساسيين هما: اللغة باعتبارها نظاما، والإيصال باعتباره هدفا للمتكلمين، وهي علاقة تمثل فيها اللغة أداة الإيصال، ويمثل فيها الإيصال وظيفة اللغة. فاللغة أداة للإيصال؛ لأنها نظام من الإشارات . حسب سوسير . يستخدم كوسيلة لنقل رسالات إنسانية. أما الإيصال فهو عبارة عن مجموعة من الأخبار،أو العبارات المصطلح على تسميتها بالرسالة، وهي التي يتم نقلها إلى قارئ، أو سامع، أو مخاطب عبر قناة تسمى الإيصال.[10]

ب . اللغة تنتج كائنا

باللغة يتميز الإنسان عن الحيوان، وبها يصير فصيحا صاحب بيان، واستقلالها بنظامها هو ما يجعلها ذات قدرة إبداعية تنتج كائنا يركز على: ماذا يقول ؟ وكيف يقول ؟ لأن اللغة طاقة خلاقة عن طريق المجاز، وتوليد المعنى، واستدعاء المعنى، والمجاورة، وغير ذلك.[11]

4 . الأسلوبية والدراسات الأسلوبية

تحتاج الأسلوبية إلى رؤية شمولية لدراسة أجزاء الخطاب، كلمات وجملا، ولتحقيق ذلك لا بد لهذه الأسلوبية أن تتحول لدراسة النص، وتعتبره وحدة تركيبية ودلالية، سواء تعلق الأمر بالألفاظ، أو بالتراكيب، أو بالجمل. وهي بهذه النظرة تستطيع أن تستفيد أيضا من دراسات أخرى في ميادين مختلفة من العلوم الإنسانية، كالتاريخ، والفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلوم أخرى تسهم في إغناء البحث الأسلوبي.

وفي الوقت ذاته لا يمكن الاستغناء عن مفاهيم أساسية تعين على تشريح النصوص وتحليلها كالشعرية، والأدبية، وعلم الجمال، والسيميويولوجيا.

وبما أن الأسلوبية تمثل الدرس العلمي للغة الخطاب، فإنها متعددة الجوانب والأبواب، بل متعددة المدارس والمذاهب والنظريات أيضا، وكل ذلك قام المؤلف باختزاله عن طريق الوقوف عند باحثَين أكّدا اهتمامات البحث الأسلوبي أولا، وبيّنا موقف الأسلوبية من الخطاب ولغته ثانيا، وهذان الباحثان هما:

1 . جيل غرانجير: من خلال بحثه في الأسلوب، ودلالة الإشارات، والشُّرَع ودلالاتها.

2 . جورج مونان: من خلال نظرته إلى الانزياح والأسلوب من وجوه عدة. ثم التكرار في الأسلوب، أصواتا، وكلمات، وجملا. ثم الإيحاء في الأسلوب الذي يكشف عن معاني جديدة تبشّر بها الأصوات، و الكلمات، والعبارات.3

وعموما فقد غطى هذا القسم الأول من الكتاب حوال خمس وستين صفحة، وهو عبارة عن مقدمات نظرية لما سيتطرق إليه الكاتب في القسم الثاني من هذا الكتاب.

. القسم الثاني:

1 . نظام اللغة ونظام الأسلوب

صدّر الكاتب هذا المحور بتمهيد أشار فيه إلى تعدد المصادر التي عرّفت اللغة، وكلها في نظره تشير: " إلى خصائص متفرقة من تكوين اللغة ذاتها، أو من عملها ووظيفتها ".[12]

---

[10] الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، ص 56

2 [11] نفسه، ص 60 وما بعدها

3 نفسه، ص 71 وما بعدها

[12] الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، ص 91

لكنه لم يقتنع بهذه التعريفات ، لكونها لم تبلغ الدقة في حد التخصص، واقترح تعريفا يراه شاملا للأسلوبية، وهو قوله: " إن الأسلوب نظام تؤدي اللغة فيه وظائف مخصوصة ".[13]

ثم مضى يتحدث عن الأسلوبية ووظيفة اللغة، وعن النظام بين اللغة والأسلوب، وعن المقارنة بين نظام اللغة ونظام الأسلوب، وعن اللغة بين لسانيات الجملة ولسانيات النص.

ثم ذيّل ذلك بخاتمة جمع فيها نتائج ما توصل إليه، ولعل أبرز هذه النتائج أن هناك حلقة وصل مفقودة بين اللسانيات والنص تمثلها الأسلوبية؛ لأنها أداة دخول النص.

2 . من الكائن الإنساني إلى الكائن الكلامي

يفتتح الكاتب هذا العنصر بالإشارة إلى نوعين من الخطاب هما: الخطاب الإيصالي، والخطاب الإبداعي. أما الأول عنده: " فمدار الدرس فيه يقوم حول سؤالين: ماذا يقول الخطاب ؟ ومن ذا الذي يقوله ؟ وأما الثاني فيقوم مدار الدرس فيه حول سؤال واحد: كيف يقول الخطاب ما يقول ؟ ".[14]

وقد تم إيضاح ذلك من لدنه عند الانتقال من الكائن الإنساني إلى الكائن الكلامي، وذلك: " عندما يكون النص إخبارا، تكون لغته أداة. وعندما يكون إبداعا، تكون لغته خبره الذي ينقله، ويكون هو أداتها ".[15]

ولا تأخذ اللغة في علاقتها بالأسلوب هذا المعنى، إلا إذا نظرنا إلى ذلك من وجهين أساسيين هما: الخطاب الإنساني والإيصال، ثم الخطاب الكلامي والأسلوب.

3 . في نظرية النص

لكل نص نظامه الخاص، فهو يستغني بلغته عن لغة غيره. وقد رأى فيه المَنظِّرون خَلْقا مستقلا وقائما بذاته. وقد ارتأى المؤلف هنا أن يجيب على السؤال التالي: ما النص ؟ وما مفهومه ؟

وقد تم ذلك من خلال عرضه لتعريفات كبار المنظِّرين للنص وتجلياته، ورأى أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: " قسم يذهب إلى تعريفه مباشرة من خلال مكوناته، ويمثله (تودوروف). وقسم يذهب إلى تعريفه من خلال ارتباطه مع الإنتاج الأدبي، ويمثله (رولان بارت). ويذهب القسم الثالث في تعريفه مذهبا يربطه بفعل الكتابة، ويمثله (بول ريكور) ".[16]

ثم مضى يناقش هذه التعريفات، ويقارن بينها، في ضوء علم اللغة الحديث.

كما أشار إلى أبحاث منظِّرين آخرين للنص، لا يقلون أهمية عن الثلاثة المذكورين، مثل: جوليا كريستيفا، وكريماس، وجيرار جينيت، وهي تقودنا إلى عالم ما بعد الأسلوبية، حيث تصبح فعالية النص قراءة تشاطر النص وجوده. ليخلص بعد ذلك كله بنتيجة شاملة، هي أن الأسلوبية رؤية، والرؤية فكر.[17]

---

[13] نفسه، ص 92

[14] نفسه، ص 106

[15] نفسه، ص 107

[16] الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، ص 121

[17] نفسه، ص 121 . 137

4 . الأسلوبية: موقف من الخطاب

حاول المؤلف في هذا المحور أن يقف عند موقف الأسلوبية من الخطاب أولا، وأن يلتمس الطريق ويشقها نحو نظرية النص ثانيا. فذكر أن الأسلوبية موقف من الخطاب ولغته. ويتجلى هذا الموقف في عمل اللغة نفسه، لأن اللغة نشاط، وكل نشاط يؤدي إلى قضاء نظامه القاعدي الذي يقوم به، وقضاء الوجود الإنساني الذي يتجلى به. وبالتالي كلما تَمَّت اللغة قولا، اكتملت نصا. وهذا ما دفع الكاتب إلى تقسيم الموقف الأسلوبي على ثلاثة أقسام هي:[18]

. القسم الأول: يرى أن عملية الإيصال لا تكون إلا بتمام أطرافها دون نقص، أي بوجود المرسل، والمرسل إليه، والرسالة.

. القسم الثاني: يرى أن عملية الإيصال كما في الأعمال الأدبية، شكل راق، وصيغة مخصوصة. وهي لا تحتاج إلا إلى المرسل والرسالة.

. القسم الثالث: يرى أن هذا الشكل الراقي ما إن يتم، حتى ينقطع عن مرسله، لتبقى العلاقة بين الرسالة والمرسل إليه، زمنا لا ينتهي دوامه.

ثم استمر يفصّل في هذه الأقسام الثلاثة ويناقشها، ملتزما بعناصر التحليل، والوصف، والملاحظة، وإبداء الرأي من حين لآخر.

هذا، وقد استغرق هذا القسم الثاني برمته حوالي سبع وستين صفحة من الكتاب، وهي حصة الأسد منه، وما كان القسم الأول إلا مقدمات نظرية للقسم التطبيقي.

المحور الثالث: قيمة الكتاب وأبعاده

لا يمكننا إنكار القيمة التاريخية، واللغوية، والمعرفية، والنقدية، والأدبية، والفلسفية لكتاب: " الأسلوبية وتحليل الخطاب " لصاحبه منذر عياشي. فهو من المراجع النافعة في بابه، ويمكن للباحثين الرجوع إليه عند الحاجة؛ لأنه محاولة رائدة في التأصيل للدرس الأسلوبي، والانتقال به من التعامل مع الجمل إلى التعامل مع النصوص. وبالتالي الخروج من قوقعة اللسانيات، والتوجه صوب تحليل الخطاب؛ الذي يسعى بدوره إلى الاستعانة بعلوم أخرى غير لغوية، تسهم في تشريح النص وتحليله، ثم إبراز ما بعد سطوره، وذلك مثل التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا ...

وتكمن قيمة هذا الكتاب أيضا في القدرة على الجمع بين التنظير والتطبيق، والقدرة على التحليل، والجرأة في النقد، وإبداء الرأي. إضافة إلى التسلسل المنطقي لعناصر الكتاب؛ الذي تراوح بين النظرة العامة للسانيات والأسلوبية (المدخل)، وبين التنظير لمجال الأسلوبيات (القسم الأول)، استعدادا للجانب التطبيقي في مجال الخطاب وتحليل النصوص (القسم الثاني).

ثم التسلسل في طريقة عرض الموضوعات المتتابعة بأسلوب لغوي محض وماتع، وهو ما يمنع الملل من التسرب إليك وأنت تطالع هذا الكتاب.

[18] نفسه، ص 139 . 140

خاتمة

في ختام هذه القراءة، وبعد مطالعتنا للكتاب، بدا لنا أنه عبارة عن مجموعة من المقالات، عمد الكاتب إلى تنظيمها في كتاب محكم البناء، وذلك قصد تعميم الاستفادة لطلاب العلم، ولا يبقى حكرا على الجامعة التي يدرس بها المؤلف، وهو شبيه بالأبحاث الأكاديمية من حيث الاقتباس والتوثيق. ودليل ذلك أنه ذيَّل كل عنصر بالإحالات التي تضمنتها المراجع العربية والأجنبية التي استقى منها معلوماته. وهذا ينم عن شخصية متفردة ذات اطلاع واسع، ومؤمنة عن وعي بقيمة التأليف في ميدان اللسانيات والأسلوبية.

وقد أبان المؤلف في هذا الكتاب؛ وكتبه الأخرى أنه قادر على استيعاب كل ما أنتجه اللسانيون الغربيون والعرب، ليعطيَ عصارة ذلك كله في كتاباته. ولكن ما يميز عمله الذي قرأنا فيه، جعْله إنتاجا نظريا يقوم على النقد، والتحليل لما هو تطبيقي. وذلك من خلال بسط آليات الخطاب، وأغراضه، ومجالاته.

فتحليل الخطاب ـ عنده ـ مرحلة جديدة في الدرس اللغوي والنقدي، حيث يمثل آخر ما وصل إليه النقد الأدبي، إذ تجاوز تحليل النصوص من الوجهة اللسانية البنيوية التي كانت تنطلق في دراسة النص لذاته وفي ذاته، من المستوى الصوتي، إلى المستوى الصرفي، إلى المستوى التركيبي، إلى المستوى الدلالي. إلى وسائل ما بعد البنيوية التي أصبحت تركز على القراءة، والتأويل، وغير ذلك مما من شأنه أن يعمل على سبر أغوار النص، وكشف ما وراء سطوره.

ولكن رغم أهمية هذا الكتاب، وقيمة صاحبه، إلا أن هناك بعض الملاحظات يمكن الإدلاء بها كما يلي:

1 ـ لم يضع مقدمة أو توطئة للكتاب، يضعنا من خلالها أمام صورة الكتاب، وإنما ترك ذلك مبهما ليكتشفه القارئ بذاته.

2 ـ نلاحظ أنه لم يعرِّفنا بمنهج تأليفه للكتاب، ولا ذكر لنا الغرض من تأليفه، ولا الخطة التي اعتمدها في ذلك.

3 ـ نلاحظ أن كل عنوان من القسم الثاني، أردفه بخاتمة مستقلة، تُفهَم من سياق الكلام، وطريقة الصياغة. بينما نراه يخصص القسم الأول إجمالا بخاتمة واحدة، جامعة وعامة، يقول في مطلعها: " وخاتمة لما أسلفنا. نقول: إن تقديمنا لهذه النقاط، على ما فيها من سرعة، وإيجاز ..."[19].

المراجع المعتمدة:

- الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى 2002م
- الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش، دار الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ ـ 1992م
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، صدر سنة 1379هـ ـ 1960م

[19] الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، ص 87